

تفسير سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١].

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] وقال: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمr: ١] وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي قرب ما تباعد، فلا تستعجلوه، ويحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم. ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [٢].

يقول تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي الوحي. وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ هم الأنبياء. وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أي لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٣].

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي، وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق، لا للعبث. ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلماذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [٤].

ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة، أي مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً، لا ضدّاً، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 77].

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [٥].

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة

الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٦).

ويمتن عليهم بما لهم فيها من الجمال وهو الزينة. ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وهو وقت رجوعها عشيّاً من المرعى، فإنها تكون أمده خواصر، وأعظمه ضروعاً، وأعلاه أسمته ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا يَشِقُّ آلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧).

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا يَشِقُّ آلْأَنْفُسِ﴾ وذلك في الحج، والعمرة، والغزو، والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام، وسخرها لكم.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨).

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ويمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها. ولما فصلها من الأنعام، وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿وَالْأَنْفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5] فهذه للأكل ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ فهذه للركوب.

﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩).

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى: ﴿وَسَكَرُودُوا قَاتِلَ حَيْرَ أَرْزَادِ الثَّقَوِيِّ﴾ [البقرة: 197] ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة، والأسفار الشاقة شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153] قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال

طريق الحق إلى الله، وقيل: الإسلام. ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي حائد مائل زائع عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية. ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَكُمُ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٠).

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزاله المطر من السماء، وهو العلو مما لهم فيه بلغته ومتاع لهم ولأنعامهم فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجاجا ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم، ومنه الإبل السائحة، والسوم الرعي.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١).

أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢).

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومنه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نوراً وضياء ليتهدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله فيه، يسير بحركة مقدره، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه، وتسخيره وتقديره وتسهيله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة، وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله، ويفهمون حججه.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣).
﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤).
يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب

فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، واحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح وقيل: تمخره بجؤجئها، وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها عنه الناس قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي نعمه وإحسانه.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥).

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي لا تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنا عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَأَلْبِغَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: 32] وقوله: ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد ينبع في موضع، وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت وما بين نبع وجمع. وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها سبلاً أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: 31].

﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَأْتَجِمُّ هُم يَهْتَدُونَ﴾ (١٦).

﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي دلائل من جبال كبار، وآكام صغار، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطريق. وقوله: ﴿وَيَأْتَجِمُّ هُم يَهْتَدُونَ﴾ أي في ظلام الليل.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧).

ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً، بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧).

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨).

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم، وإحسانه إليهم فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٨) أي يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على السيير.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله، لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الصافات: 96] .

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء .

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أَجْمَلُ الْآلِهَةِ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: 5] وقوله: ﴿وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا اسْطِيرِ الْأُولَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ .

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿مَاذَا أُنزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿اسْطِيرِ الْأُولَىٰ﴾ أي لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اسْطِيرِ الْأُولَىٰ أَكْتَبَهَا فِيهِ نُمُلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: 5] أي يفترون على الرسول، ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة، كلها باطلة .

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضَلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا

يُرْسُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك، ليتحملوا أوزارهم، ومن أوزار الذين يتبعونهم، ويوافقونهم، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من

الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً. وقال تعالى: ﴿وَلِيَحِيلَنَّ أَقْبَالَهُمْ وَأَقْبَالًا مَعَ أَقْبَالِهِمْ وَلِيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَقْرَأُونَ﴾ [المكيت: 13].

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَ عَلَيْهِمْ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٦].

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قيل: هو «النمرود» كان أول جبار في الأرض، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾، وقيل: بل هو «بختنصر» وقال آخرون: هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله، وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح ﷺ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: 22] أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، وأمالوهم إلى الشرك بكل وسيلة. وقوله: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي اجتهه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى ﴿كَلِمًا أَوْدَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ لَمَفَا مَا اللَّهُ﴾ [السناءة: 64] وقوله: ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَّرَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: 2] وقال الله ههنا: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَنْ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [١٧].

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾ أي يظهر فضائحهم، وما كانت تحججه ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله: ﴿يَوْمَ بَلَ السَّرَابِ﴾ [الطارق: 9] أي تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان» وهكذا يظهر للناس ما كان هؤلاء يسرون من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب مقررأ لهم وموبخأ: ﴿أَنْ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصرتم وخلصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشعراء: 93] ﴿فَأَلَمُ مِنْ قَوْمٍ وَلَا تَأْمِرُ﴾ [الطارق: 10] فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحققت عليهم الكلمة، وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار، ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٢٨].

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة لقبض أرواحهم

الخبثة ﴿تَأَلَّفُوا تَلَافً﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَيْءٍ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ﴾ [المجادلة: 18] قال الله مكذباً لهم في قلوبهم ذلك: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي بشس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله، واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبورها من حرها، وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُحْفَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [ناظر: 36] وكما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْضَوْنَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غانر: 46].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَلِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: خيراً، أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه، وآمن به. ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ...﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُذِّنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة. ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: 80] وقال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ [آل عمران: 198] ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿وَلِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من دار المتقين، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها ﴿يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَكَلْدُ الْأَعْيُنِ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: 71] ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي كذلك يجزي الله كل من آمن به، واتفقاه، وأحسن عمله.

﴿الَّذِينَ نُوَفِّدُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخِلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢).

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون، أي مخلصون من الشرك والدنس، وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة التي كانوا يوعدون ﴿تَحْنُ أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣١) ﴿لَا يَنْفَكُ مِنْ عَفْوَهِمْ رَحِيمٌ﴾ (٣٢) [نصت:

[32، 31].

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٣).

يقول تعالى مهتداً للمشركين عن تماديهم في الباطل، واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ أي يوم القيامة، وما يعانونه من الأهوال. وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم، وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي بمخالفة الرسل، والتكذيب بما جاؤوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٤).

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله يقال لهم يوم القيامة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ (١٤) [الطور: 14].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥).

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الاشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه، قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣٦).

في كل أمة أي في كل قرية وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن

عبادة ما سواه ﴿أَبْ عَبَدُوا اللَّهَ وَآجَنَبُوا الطُّغُوتَ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ [النحل: 35] فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرأ فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة، وحكمة قاطعة. ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل فلماذا قال: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ...﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَسْئَلُهُمْ﴾ [عمد: 10].

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [٣٧].

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: 41] وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: 34] وقال في هذه الآية: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلماذا قال: ﴿لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي من أضله فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: 54].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٨].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم، أي اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت، أي استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم، وراداً عليهم: ﴿يَلَيَنَّ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي لا بد منه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلجهم يخالفون الرسل، ويقعون في الكفر.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [٣٩].

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد، وقيام الأجساد يوم التناد فقال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أي للناس ﴿الَّذِي

يَخْلِفُونَ فِيهِ ﴿١٤﴾ أَي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٥﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿١٦﴾ أَي فِي أَيْمَانِهِمْ وَأَقْسَامِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ ، وَلِهَذَا يَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً ، وَتَقُولُ لَهُمْ الزَّيْبَانِيَّةُ ﴿١٧﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ أَصْلَوْهَا فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ [الطور: 14-16].

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿٢١﴾ .

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ والمعاد من ذلك إذا أراد كونه، فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ ﴿٢٢﴾ [الفر: 50] وقال: ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفْتِينَ وَجِدَةً ﴾ [لقمان: 28]. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقول: قال الله تعالى: شتمني ابن آدم، ولم يكن ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ [النحل: 38] قال: وقلت: ﴿ بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 38] وأما شتمه إياي فقال ﴿ إِنَّكَ تَالِكٌ ثَلَاثَةٌ ﴾ [المائدة: 73] وقت: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: 1-4]. هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصحيح مرفوعاً بلفظ آخر.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ .

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته الذين فارقوا الدار والاحوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ﴿ لَنَبُوْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ هي المدينة، أو الرزق الطيب، ولا منافاة فقد مكن الله لهم، وعوضهم، وجعلهم أمراء حكاماً ﴿ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أي مما أعطاهم في الدنيا ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة يعلمون ما ادخر الله لمن هاجر في سبيل الله .

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا . . . ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ .

عن ابن عباس لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك، أو من أنكرت منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ [يونس: 2] وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ يعني أهل الكتب الماضية، أبشراً كانت الرسل إليهم، أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة

أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً. والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 93].

﴿يَالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤).
ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿يَالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهي الكتب. والزبر جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق، وسيد ولد آدم، فتفضل لهم ما أجل، وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهدتون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥).

يخبر تعالى عن حلمه، وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات، ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم، وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (٦٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿٤٧﴾ [الملك: 16، 17].

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤٦).

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أي في قلبهم في المعاش، واشتغالهم بها في الأسفار ونحوها من الأشغال الملهية، قال قتادة ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ في الليل والنهار كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٤٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٤٨﴾ [الأعراف: 97، 98] وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٧).

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافهم» وفيهما «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٦١) [هود: 102].

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَتِنُوا ظِلْمَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر تعالى أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى. ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون.

﴿وَاللَّهُ سَاجِدٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .
﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تسجد لله، أي غير مستكبرين عن عبادته.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .
﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي متابعين على طاعته تعالى، وامثال أوامره، وترك زواجره.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا نَتَّخِذُ أُولَئِكَ إِلَهَيْنِ أَتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَجِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ ﴿٥١﴾﴾ .
يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه.

﴿وَلَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .
﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ دائماً، أو واجباً، أي خالصاً، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض.
﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَتَّقُونَ﴾ وكلمة أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴿٥٣﴾﴾ .
[آل عمران: 83].

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ .
ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسالونه، وتلمون في الرغبة إليه مستغيثين به كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: 67].

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .
وفال هنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٥).

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ قيل: اللام هنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل، بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا، أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قائلاً ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة ذلك.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَأَلُّهُ لَشَتَانٍ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٦).

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136] أي جعلوا لألهتهم نصيباً مع الله، وفضلوها على جانبه فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن ذلك الذي افتروه وانتفكوه، وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿تَأَلُّهُ لَشَتَانٍ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧).

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله فعبدها معه فأخطوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم كما قال تعالى: ﴿الْكُفْرَ الذَّكْرَ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ (٥٦) ﴿إِذَا قَسَمْتَ لِجَنَّتِ﴾ [النجم: 21، 22] وقوله ههنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ أي عن قولهم وإنكهم. وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور، ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله. تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. فإنهم كما قال الله عنهم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨).

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي كئيباً من الهم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن.

﴿يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٩).

﴿يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْرِ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة، لا يورثها، ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يثدها، وهو أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة،

ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بشس ما قالوا، وبشس ما قسموا، وبشس ما نسبوه إليه .

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ .
 ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لولا يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لاهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستتر، وينظر إلى أجل مسمى، أي لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجعل أن يعذب بذنب بني آدم. وقرأ الآية ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فالتفت إليه أبو هريرة فقال: بلى والله حتى إن الجباري لتموت في وكرها بظلم الظالم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّيِّئَةُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ .

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي من البنات، ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله. وقوله: ﴿وَتَصِفُ السَّيِّئَةُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَدَقَّتْهُ رَحْمَةٌ مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِنَّ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾ [نفلت: 50] فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل. قال مجاهد وقتادة: ﴿وَتَصِفُ السَّيِّئَةُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ الغلمان. ﴿لَا جُرْمَ﴾ أي حقاً لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ منسيون فيها مضيعون. وهذا كقوله ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: 51] أو ﴿مُفْرَطُونَ﴾ معجلون إلى النار، من الفرط وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أي يخلدون.

﴿ثُمَّ نَالَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ .

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من

المرسلين أسوة، فلا يبيدك تكذيب قومك لك. وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي هم تحت العقوب والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

﴿١٤﴾

ثم قال الله تعالى لرسوله ﷺ: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدًى﴾ أي للقلوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي لمن تمسك به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾

وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضَ بِمَآ فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا

لِّلشَّارِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿وَإِنَّ لِكُلِّ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿تُنْقِضُ بِمَآ فِي بُطُونِهِ﴾ أفرد الضمير هنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان. وفي الآية الأخرى ﴿وَمِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: 21] ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّمَا نَذَكْرَةٌ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ [عبس: 11، 12] وفي قوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمُ بِهِدْيٍ فَأَنْظِرُهُ﴾ يَمِ بَرَجُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سَلِيمَنَ ﴿[النمل: 35، 36] أي المال. وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به. وقوله: ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي لا يغص به أحد.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٧﴾

ولما ذكر اللين وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً، نثي بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعنان، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ لَتَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على

التسوية بين المسكر المتخذ من النخل، والمتخذ من العنب، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ .

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون.

﴿يُمْ كَلِيٌّ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْتَلْكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ .

ثم هي محكمة في غاية الاتقان في تسديدها ورحبها بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها إذناً قدرياً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها، مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل فتبني الشمع من أجنحتها، وتغني العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها. روى ابن أبي يعلى عن رسول الله ﷺ: «عمر الذباب أربعون يوماً، والذباب كله في النار إلا النحل». وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكليها منها. وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي في العسل شفاء للناس أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال: فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء، ولكن قال: فيه شفاء للناس، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار والشيء يداوى بضده. وفي صحيح البخاري «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنبي أمتي عن الكي».

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

قَدِيرٌ﴾ ﴿٧٠﴾ .

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [لقمان: 54] وعن علي: أرذل العمر خمس وسبعون سنة، وفي هذه السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ .

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١).

بين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه الله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، فقال تعالى منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساوا عبدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ كتب عمر إلى أبي موسى: واقع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يتبلي به كلاً، فيتبلي من بسط له كيف شكره الله، وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢).

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين، أو هم الولد وولد الولد، أو الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي يسترون نعم الله عليهم، ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأدرك ترأس ذرية؟».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣).

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المفضل الرازق وحده، لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دون الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً، أي لا يقدر على إنزال مطر، ولا إثبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال:

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤).

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إنه يعلم ويشهد أن لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّرَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي ۗ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر. والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرّاً وجهراً هو المؤمن. عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿اَلْحَمْدُ لِلَّهِ ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا تَجَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ .

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن، والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كلُّ أي عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ أي يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي بالقسط، فمقاله حق، وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَٰهَ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ .

يخبر تعالى عن كمال علمه، وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك، إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أُمِرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصَرِ﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا أُمِرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَٰهَ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَلِمَةً وَبِحُدُقٍ﴾ [لقمان: 28].

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرثيات، والأفئدة التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل الذي به يميز بين الأشياء: ضارها ونافعها. وهذه الحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارية

وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد بارزته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه» فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعات صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله «ورجله التي يمشي بها» «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي». ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩).

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِرٌ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَانُ إِنَّهُ يَكِلُ شَيْئًا بَصِيرًا﴾ [الملك: 19] وقال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ﴾ (٨٠).

يذكر تعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً، أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر. ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا أَي الغنم﴾ ﴿وَأَوْبَارِهَا أَي الإبل﴾ ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي المعز. والضمير عائد على الأنعام ﴿أثْنَا﴾ أي تتخذون منه أثناً، وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي إلى أجل مسمى وقت معلوم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾ (٨١).

﴿ظِلَالًا﴾ يعني الشجر ﴿أَكْنَانًا﴾ أي حصوناً ومعاقل ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهي

الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وَسَرَّيْلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ (٨٦).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي بعد هذا البيان، وهذا الامتنان فلا عليك منهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدبته إليهم.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفُرُوا﴾ (٨٧).

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكْفُرُوا﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٨).

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً، وهو نبيا يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في الاعتذار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَبْطِقُونَ﴾ (٥٥) وَلَا يُؤَدُّ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٢٦﴾ [المرسلات: 35، 36] فلهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٩).

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي الذين أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يفتّر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ

فَأَلْفَوْا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠).

ثم أخبر تعالى عن تبري الهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْفَوْا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٩٠) وَإِذَا خَيْرَ النَّاسِ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِمَادِيهِمْ كُفْرِينَ ﴿٩١﴾ [الاحقاف: 5، 6].

﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٩٢).

﴿وَأَلْفَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ ذلوا واستسلموا يومئذ، أي استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع

مطيع . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَأْكَاثُهَا يَقْتَرُونَ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أي عذاباً على كفرهم ، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام : 26] .

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ .

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعني أمتك ، أي اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم ، والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿النساء : 41﴾ فقال له رسول الله ﷺ : «حسبك» فقال ابن مسعود رضي الله عنه : «فالتفت فإذا عيناه تذرفان» . وقوله ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، أو كل حلال وحرام ، أو هو أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق ، وعلم ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دينهم ودنياهم ، ومعاشهم ومعادهم ﴿وَهُدًى﴾ أي للقلوب ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩١﴾ .

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ﴿النحل : 126﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ، أو هو في هذا الموضع : استواء السريرة والعلانية ، من كل عامل لله عملاً ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته . ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فالفواحش والمحرمات ، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها . وأما البغي فهو العدوان على الناس ، وفي الحديث : «ما من ذنب أجدد أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخره لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم» . ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من

الشر ﴿لَمَلَكْتُمْ تَذَكُّرُونَ﴾ عن ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ وفي الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها».

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١).

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي لا يحملنكم قلة أتباع محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. ولا تعارض بين ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 224] وقوله ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89] وقوله عليه الصلاة والسلام: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وتحملتها» وفي رواية و«كفرت عن يميني». لأن هذه الأيمان في الآية ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ هي الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾ (٩٢).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ...﴾ هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. ﴿أَنْكَا﴾ أي أنقاضاً، أو لا تكونوا أنكاثاً جمع نكث من ناكث، ولهذا قال: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي خديعة ومكرراً ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي تحالفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلائنه ينهى عنه مع التمكّن والقدرة بطريق الأولى. وفي الحديث: «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضي أمدها» ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي أكثر. قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِمْ﴾ يعني بالكثرة، أو بأمره إياكم بالوفاء بالعهد. ﴿وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ لَنْ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣).

﴿لَجَمَلِكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةٌ رَّجِدَةٌ﴾ أي لوفق بينكم، ولما جعل اختلافاً ولا تباعض ولا شحناء ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتل والنقير والقطمير.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤).

حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان ﴿دَخَلًا﴾ أي خديعة ومكرأ، لثلا تزل قدم بعد ثبوتها. هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاده عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى المؤمن فدهاه، ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥).

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تتعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خيراً له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦).

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أي يفرغ فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناه ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باقٍ، لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم. أي ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧).

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ ﴿مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وعن ابن عباس أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب، وعن علي رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وعن ابن عباس أنها هي السعادة، وعن قتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة. وعن الضحاك: هي العمل بالطاعة والانشراح بها. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل

هذا كله . وفي الحديث : «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه» رواه مسلم ، وعنه «قد أفلح من هدي للإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به» ، رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وروى مسلم «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيظلم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً» .

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة ، وهذا أمر نذب ليس بواجب .

﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ .

﴿إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب ، لا يتوبون منه . وقيل : لا حجة له عليهم وقيل : كقوله : ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [احجر : 40] .

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠١﴾﴾ .

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمْ﴾ يطيعونه ، أو اتخذوه ولياً من دون الله ﴿هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي أشركوه في عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون : معناه أنهم أشركوهم في الأموال والأولاد .

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ .

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين ، وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . قال مجاهد : ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ رفعناها وأثبتنا غيرها . وقال قتادة : هو كقوله تعالى : ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة : 106] .

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ .

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي جبريل ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً ، وتثبت له قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وجعله هدياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ
وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١١٢).

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب، والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي. كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل. والذي يشيرون إليه هو غلام أعجمي يقال له: جبر عبد لبعض بني الحضرمي، أو كان قيناً بمكة اسمه بلعام، أو هو سلمان الفارسي. وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١٣).

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٤).

ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه إنما يفتر الكذب على الله ورسوله ﷺ شرار الخلق ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدین المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ أصدق الناس وأبرهم، وأكملهم علماً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد. ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ
بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٥).

أخبر تعالى عن كفر بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر، واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان، ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة. وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴿١١٦﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه، ووافق المشركين بلفظه مكرهاً، لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية. وقد اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد، أحد، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها. رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً، وهو ثابت على ذلك.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١١٧﴾﴾ .

ذلك لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يبد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ .

فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٩﴾﴾ .

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٠﴾﴾ .

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهلهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا فأخبر تعالى أنه من بعدها أي تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور رحيم بهم يوم معادهم .

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١٣).

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ أي تحاج ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ ليس أحد يحاج عنها، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١١٥).

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطُفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [التقص: 57] وهكذا قال ههنا ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي هنيئاً سهلاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ أي جحدت آلاء الله، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْآبَوَارِ﴾ (١١٤) ﴿يَصَلُّونَهَا وَيَنَسُّوا الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 28، 29] وقوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيئ إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ، وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبح يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز، وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه. وقوله: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم وامتن به عليهم.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُفْرًا مِنِّيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤).

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٥).

ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير

﴿وَمَا أَهْلَ لِيَغَيِّرَ اللَّهُ بَيْتَهُ﴾ أي ذبح على غير اسم الله . ومع هذا ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَيْعٍ وَلَا عَاوِدٍ﴾ أي احتاج إليه من غير بغى ولا عدوان ﴿فَأَنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ .

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ . . .﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي ، أو حلل شيئاً مما حرم الله ، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه . ثم تواعد على ذلك فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة .

﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١١٧﴾ .

أما في الدنيا فمتاع قليل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال : ﴿نَعِمْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٢٤﴾ [لقمان : 24] .

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ .

لما ذكر الله تعالى أنه حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أُرخص فيه عند الضرورة ، وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى ذكر سبحانه ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرَج فقال ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله : ﴿وَنَزَّلَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُلْفُرٍ . . .﴾ [الأنعام : 146] ولهذا قال : ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي فاستحقوا ذلك كقوله : ﴿فِي ظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَقَتْ أُحْمَتٌ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿١١٨﴾ [النساء : 160] .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١١٩﴾ .

ثم أخبر تعالى تكراً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم تاب الله عليه فقال : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي أفلحوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي تلك الفعلية والزلة ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ .

يمدح تعالى عبده وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ، ومن اليهودية ،

والنصرانية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ فأما الأمة فهو الإمام الذي يقتدى به . والقانت: هو الخاشع المطيع . والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آجْتَنِبُهُ وَهَدَانُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١١٣﴾ .

﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿[النجم: 37]﴾ أي قام بجميع ما أمره الله به ﴿آجْتَنِبُهُ﴾ أي اختاره واصطفاه .

﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ .

﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ .

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل، وسيد الأنبياء ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿[الأنعام: 161]﴾ .

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ .

ثم قال تعالى منكرأ على اليهود: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾ لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه، وتمت النعمة على عباده . ويقال: إن الله شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه، واختاروا السبت، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به، وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، وأخذ مواعيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة . وقد ثبت في الصحيحين «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد» لفظ البخاري .

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥).

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، وهو ما أنزله الله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: 46] فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر موسى وهارون ﷺ حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَنَا لَكُلُّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ...﴾ أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم، إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦).

يأمر تعالى بالعدل في القصاص، والمماثلة في استيفاء الحق، أي إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله. نزلت السورة كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه، فقال رسول الله ﷺ: «لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثله أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فقال رسول الله: «نصبر ولا نعاقب» وفي القرآن ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَمْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40] وقال: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَكُمْ﴾ [المائدة: 45] وقال هنا ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ ثم قال ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧).

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانتة وحوله وقوته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على من خالفك منهم، فإن الله قدر ذلك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي غم ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ مما يجهدون أنفسهم في عداوتك، وإيصال الشر إليك.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه. وهذه معينة خاصة كقوله: ﴿إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: 12] وقوله لموسى وهرون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمَّ وَأَرَى﴾ [طه: 46] وقول النبي للصدیق: «لا تحزن إن الله معنا»، وأما

المعينة العامة فالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4]. ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي تركوا المحرمات ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ أي فعلوا الطاعات، فهؤلاء يحفظهم الله ويكلوهم وينصرهم ويؤيدهم على أعدائهم ومخالفهم.

تفسير سورة الإسراء

في البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول، وهن تلاميذ. وروى الإمام أحمد عن عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (1).

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرة على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره، ولا رب سواه. ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أي في جنح الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي «ببلياء» معدن الأنبياء من لدن إبراهيم عليه السلام. ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فأمرهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم. صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿وَمِنَ الْآيَاتِ﴾ أي العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم: 18) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة. هذا وحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ (2).

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكتيمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد ﷺ، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي هادياً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ أي ولياً ولا نصيراً، ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبدوه وحده لا شريك له.